احتلال بحر الغزال

٩

اليوزباشي احمد كامل

ختمت رسالتي السابقة بذكر رفيق من رفقاء هذه الرحلة · هو اليوز باشي احمد افندي كامل · لم ادرِ وانا اكتب رسالتي في مصير انهُ كان في اقاصي السودان يقاتل في مقدمة جنودهِ هو من معهُ مَن الضباط حتى قتلوا جميعهم فان الحكومة انفذت تجريدة في شتاء هذا العام للانتصاص من بعض القبائل المتمردة بين اعالي النيل و بلاد الحبشة وقد كان اخي معها فكتب اليَّ يقول انهُ سمع من الضباط المحكمين الذين شهدوا اكثر الوقائع الحربية في السودان انهم لم يكابدوا من المشاق ما كابدوهُ هذه المرة · ثم فاجأتنا الاخبار بوقوع بلوك من البيادة الراكبة في كمين من العصاة فقتل ضباطهُ جميعهم مما يدل على انهم كانوا في مقدمة جنودهم وكان كامل افندي واحداً منهم

عرفت هذا الشاب قبل سفرنا الى بحر الغزال واقمنا هناك سنة لا يكاد يفارق الواحد منا الآخر وكثيراً ما نمنا جنباً الى جنب الارض وطاؤنا والسماء غطاؤنا · رأيت منهُ شاباً كريم الاخلاق حسن المعشر وضابطاً نشيطاً لا يكاد يعرف الكلل وقد كان لهُ شأن يذكر بعد عودتنا من بحر الغزال فانهُ ابلى بلاءً حسناً في موقعة جيروك على النيل الازرق وقبض بيدهِ على النحاس محمود وكان قد خرج على الحكومة · ثم قادتهُ سيئتهُ مرة اخرى الى اعالي النيل حيث وافاهُ القدر المحتوم فمات موت الجندي الباسل رحمهُ الله رحمة واسعة

النهائم

في الجزء الجنوبي من بحر الغزال والجزء الشمالي من ولاية الكنغو جيل من الناس يعرفون عند عرب السودان بالنهائم او النهائم وقد رووا عنهم قبل دخول الاوربيين الى تلك البلاد انهم من اكلة لحوم البشر ولا شبهة الآن في صحة هذه الرواية · ولفظة النهائم هذه اصلها «نيام نيام» بلغة الدنكا ومعناها شره او نهم وهو الاسم الذي اطلقهُ الدنكاويون على هؤلاء القوم فشاع وتغلب على اسمهم الاصلي الذي يعرفون بهِ فيما بينهم وهو الآزَنْدي

والنهائم على رغم اكلهم لحوم الناس يرقى كثيرٌ من الدنكا والشلك والجور والبنتو وغيرهم من قبائل السود التي في بحر الغزال ولا بد لايضاح ذلك من ذكر شيء عن الشعوب والقبائل

التي في السودان فان الذي لا يعرف هذه البلاد قد يظن ان كل سكانها من جنس واحد او كلهم سود او زنوج . فالجزء الشمالي والشرقي من السودان سكانهُ النوبيون (البربرة) والبجاة وهؤلاء على الراجح من نسل الاثيوبيين القدماء . اما اواسطهُ اي من ابي حمد شمالاً الى الرنك جنوباً فاكثرهم عرب رحلوا اليهِ في ازمان مختلفة ولا تزال بعض قبائلهم معروفة باسمائها العربية كسليم وجهينة وكنانة وغيرها . وفي بعض هذه الانحاء شعوب من شبه السود كالفونج سكان النيل الازرق في اعاليهِ والفور سكان دارفور في الغرب فاذا اجتاز المسافر الاماكن التي فيها العرب وشبه السود دخل منطقة سكانها كلهم زنوج الوانهم سوداء حالكة وهم قبائل كثيرة اشهرها الدنكا والشلك والنوير فتى وصل الى الدرجة الخامسة من العرض الشمالي دخل منطقة فيها جيل من الناس يختلفون تمام الاختلاف عن السود وهذه المنطقة واقعة على جانبي خط الاستواء والشعوب التي فيها مزيج من الاثيوبيين والسود وهم اقل سواداً من هؤلاء وارق كثيراً في المدنية واشهرهم النانم في الشرق والفوله في الغرب ويعرف هؤلاء عند العرب بالفلاتة وهم مسلمون متمسكون بالاسلام ومنهم معظم سكان الكنغو الفرنسوي ويقيم بعضهم في السودان المصري

وقد كانت رحلة سبارکس بك كما مر الى بلاد النانم حيث لقيهُ احد سلاطينهم واسمهُ طمبوره . ويصعب كثيراً معرفة اسماء القبائل والاماكن والسلاطين في بحر الغزال فكثيراً ما تدعى القبيلة باسم سلطانها او شيخها ثم اذا مات تغير اسمها بتغييره ولا ادري هل هذا الاسم اي طمبوره اسم السلطان او اسم القبيلة . وقد روى سبارکس بك وجماعتهُ شيئاً كثيراً عما رأوهُ في تلك البلاد فقالوا ان السلطان يعرف العربية وقد كان يدين بالاسلام في زمن الحكومة القديمة وهو اقرب الى التمدن من كل السلاطين الذين لقوهم في تلك البلاد عدد رجاله اربعة آلاف مقاتل بعضهم مسلح بالبنادق والبعض الآخر بالقسي والحراب . وقالوا ان الماشية قليلة جداً في تلك البلاد لكن الزراعة والحيوانات كثيرة فيها لا سيما زراعة الموز والذرة والتيلبون وجل اعتماد الاهالي في قوتهم على الموز فيأكلونهُ رطباً ويابساً ومتى جف سحقوهُ وصنعوا منهُ دقيقاً وخبزاً وقد يصنعون منهُ نوعاً من الجعة افضل كثيراً من الجعة المصنوعة من الذرة او التيلبون . اما لباسهم فهو وشاح يصنعونهُ من لحاء شجر يعرف عندهم بالرُّكُو[1] ينقعونهُ في الماء ويدلكونهُ حتى يلين فيصير كأنهُ نسيج من الصوف وقد يخيطون منهُ اثوابًا

(1) Urostigma Kotschyana.

اما الحيوانات في تلك البلاد فكثيرة جداً وهي الاسد والنمر والجاموس والثور الوحشي على انواعه والكركدن والزراف والنعام واليعام اي الشمبانزي . ولقي البكباشي صيمس قطيعاً من الفيلة على مقربة من مكان نزل الجنود فيه فاتتى فيلاً كبيراً منها وتبعهُ حتى صار على مقربة منهُ وكانت الشمس قد غابت فرماهُ بالرصاص فجرح لكنهُ لم يقع بل نجا منهُ . وكان تبعهُ رجل من الاهالي فعادا الى المعسكر فلما كان الصباح التالي رجعا الى المكان الذي كان الفيل واقفاً فيهِ واقتفيا اثرهُ حتى رأياهُ فرماهُ البكباشي وقتلهُ . وقد قال لي انهُ لم يكد يطلق الرصاص عليهِ حتى رأى فيلاً آخر وراءهُ كاد ان يلحقهُ بخرطومهِ ففر منهُ ثم عاد وقطع ناب الفيل الذي قتلهُ ولحق بالجنود وكانوا قد ارتحلوا من مكانهم

التماسيح في اعالي النيل

كانت التماسيح في زمن الفراعنة كثيرة جداً في مصر فقد روى هيرودوتس ان الكلاب كانت اذا وردت النيل ولغت الماء وهي تعدو خوفاً من التماسيح . وقد انقرضت التماسيح من مصر شمالي اسوان وقلما يرى واحد منها بين اسوان والخرطوم اما من الخرطوم الى منابع النيل فلا يعلم عددها الا الله والنزول في الماء في بعض الاماكن لا سيما في الانهار الصغيرة التي تمدُّ النيل ضرب من الجنون فقد ذكر لي احد الضباط انهُ وقف مرة على شاطىء نهر التوفج وعدَّ التماسيح التي رآها وهو واقف في مكانهِ فكانت اربعة وثلاثين تمساحاً بعضها في الماء وبعضها على شاطىء النهر . ويقال انهُ قلما يقتل تمساح كبير في اعالي النيل ولا يرى في امعائهِ ما لا يقوى على هضمهِ من آثار الآدميين كالشعر والخرز واساور النحاس وكثيراً ما كانت التماسيح تفترس حميرنا اذا قربت من الشاطىء لترد الماء

واتفق مرة ان جنوداً جاءوا من مشرع الريك ومعهم حمير وبغال ارسلت الينا من ام دومان بدل الدواب التي ماتت فلما وصلوا وقد بقي النهر بيننا وبينهم قال لي البكباشي بلنوى خذ القوارب وأت بهم فنقلت الحمير في القوارب اما البغال فلم اتمكن من نقلها فيها لانها كانت صغيرة لا يسع الواحد منها بغلاً واحداً فكنت اجعل لكل قارب بغلين انزلها في الماء فيجرهما الجنود وهم في القارب حتى اذا وصلوا بهما الى الجانب الآخر من النهر عادوا واخذوا غيرهما وهكذا حتى عبر اكثرها وبقي بغلان منها فلما وصل الجنود بهما الى منتصف النهر رأيت كأن تياراً دفعهم وهم يجذفون بكل قواهم ثم كأنهم تغلبوا على التيار ووصلوا الى الضفة الاخرى وخرجوا بالبغلين . وكنت لا ازال واقفاً على الجانب الآخر من النهر فرأيت

بغلاً منهما بغير ذنب فعبرت لارى ماذا اصابهُ فاذا ذنبهُ مبتور وقطعة كبيرة من فخذهِ قد ذهبت وهو يشخب دماً فعلمت ان تمساحاً قبض عليهِ في الماء وجرهُ ولم يتركهُ حتى اخذ ذنبهُ وقطعة كبيرة من فخذهِ . وقد بقي هذا البغل حيًّا وعاد معي بعد ذلك بشهرين الى مشرع الريك

سفر سبارکس بك الى مصر

واشتدت الحمى علينا جميعاً ولزم سبارکس بك منزلهُ فكان لا يخرج منهُ الاَّ نادراً ولم تكن الحمى تفارقهُ وثقلت وطأتها عليَّ فلزمت فراشي . وجاءني البكباشي هيمس عائداً فقال هل تريد شيئاً قلت سيأتيني من ام درمان شيء كثير من الخرز والنحاس في البريد القادم فجذا لو اعطاني سبارکس بك مئة خرزة من خرز الحكومة اشتري بها شيئاً من اللبن حينئذٍ بعد آخر قال ساسألهُ ذلك ثم ما لبث ان عاد ومعهُ خمسون خرزة وقال ليس عند الحكومة الاَّ خمسمائة خرزة وهي لا تكفي لشترى القوت للعساكر لكن عندي مئة خرزة خذ نصفها . خمسون خرزة شيء يسير جدًّا لكن لم يكن في واو غيرها وغير الخمسمائة التي في مخازن الحكومة . هي كل ما عندها فكأنهُ اعطاني نصف ثروته

وعزم سبارکس بك على السفر الى مصر فناب عنهُ البكباشي بلتوى وجمع الجنود والضباط وودعهم وسار الى مشرع الريك ومعهُ البكباشي هيمس وكامل افندي ومحمد افندي علي وبعض الجنود . فقال لي البكباشي هيمس ابقَ هنا بضعة ايام ثم الحق بنا واتفقنا على ان اكون في مشرع الريك في اول سبتمبر فاسافر في الباخرة التي تنقل البريد منهُ في اول كل شهر الى التوفيقية على النيل الابيض ثم انتقل هنالك الى الباخرة التي تنقلهُ منها الى الخرطوم وكانت قد صارت عاصمة السودان وانتقلت اليها دواوين الحكومة من ام درمان في غيابنا

واتفق بعد سفرهم ان البكباشي بلتوى ضعفت قواهُ كثيراً فاشرت عليه بالسفر معي فابى فقلت ابقَ اذاً معك قال لا بل تسافر واخٌ عليَّ في السفر وقال ان البكباشي هيمس يكون في واو بعد ايام فلا ابقى وحدي زمناً طويلاً فلما جاء اليوم المعين لسفري [illegible] الوحشة قد غلبت عليهِ فقال جذا لو بقيت معي اياماً قلت ابقى اشهراً

وكان البكباشي هيمس في مشرع الريك ينتظر وصولي ولم يعلم اني بقيت في واو فلما لم اصل في اليوم المعين ظن ان مكروهاً اصابني على الطريق فانفذ رسولاً ومعهُ كتاب قال لي فيهِ « قل لي اين انت الآن وماذا اصابك . ان الباخرة تنتظرك الى مساء اليوم الاول من الشهر » . فاخذ الرسول عصاً وشق احد طرفيها ووضع الكتاب في الشق وسار على قدميهِ

ثمانية ايام حتى وصل الى واو ثم جاء البكباشي هيمس بعدهُ بضعة ايام فدهش لما رآني وقال ظننتك في العالم الآتي

العودة الى مصر

وبقيت في واو الى موعد البريد التالي فلما حان يوم السفر ارسلت امتعتي الى الضفة الاخرى من النهر وبت هناك . وسرت في الصباح التالي ومعي عشرة جنود وعشرة حمالين وكان معنا في واو خمسة محبوسين حكم عليهم في مصر بالاشغال الشاقة مدى الحياة لارتكابهم جناية القتل وقد مضى على كل منهم بضع عشرة سنة في سجون طرة وسواكن وفاشودة وكانت صناعة بعضهم البناء والبعض الآخر التجارة فارسلتهم الحكومة الى واو لبناء المنازل وكانوا بغير قيود في ارجلهم لانهُ لا خوف من فرارهم في تلك البلاد والفرار فيها اشد خطراً من البقاء في ضيافة الحكومة . وكان اثنان منهم سوريين احدهما من حوران وهو شيخ كبير ذو لحية بيضاء والثلاثة الآخرون مصريين . فاصبح احد هؤلاء المحبوسين يخلى فاخذتهُ معي الى الخرطوم وكان اسمهُ عبد الرحيم وهو من كبار الاشرار ارتكب القتل مرارًا منها مرة وهو في السجن فحكم عليهِ بسبع سنوات اخرى اي اضيف سفر من السنين الى مدة الحكم السابق ولعلَّ هذا السفر كان مكافأة لهُ لان المقتول كان سجينًا آخر لا يقل عنهُ شهرة . ولما كان عبد الرحيم هذا خفيف البنية وقد ربي في رفاهة من العيش اركبتهُ البغل الابتر الذي مرَّ ذكرهُ ولم يكن معي غيرهُ من البغال فكان هو يركب وانا اسير على قدميَّ فسرت ثلاثة عشر يومًا وعبد الرحيم لا يفارق ظهر البغل . ولعلهُ لا يزال حتى الآن يسرح ويمرح في ضيافة الحكومة

وسرنا من واو في اوائل اكتوبر وفصل المطر في اواخره وكانت المياه قد غمرت البلاد في كثير من الاماكن والعشب قد ارتفع الى ما يزيد على قامة الانسان فكنا تارة نخوض المياه امياليًا وتارة نسير بين العشب فيعيقنا عن السير فنفرقهُ بايدينا . وبعد مسير ثلاثة ايام وانا في ملازمة لي خارت قواي وانطرحت تحت شجرة لا اعي على نفسي وبقيت كذلك يومًا كاملاً ثم انتبهت وعدنا الى المسير . ولم نرَ من الصيد في هذه السفرة الاَّ نعامة وظبيًا فقتلت الظليم واخذت ريشهُ

وبلغنا مشرع الزيك بعد مسير ثلاثة عشر يومًا فلقيت هناك الضباط الذين جاءوا من ام درمان بدلاً منا وكان بينهم البكباشي مكوت باربور وهو لا يكاد يصدق اي متى يأتيهِ الامر بالسفر الى داخل البلاد ولم يكن يعلم ما قدَّر لهُ من غدر الاهالي به

ولم تأت باخرة البريد في اليوم المعين وكنت اخاف انها اذا تأخرت عن المجيء لا اصل الى التوفيقية قبل قيام البريد منها فيئست من وصولها وعللت اني سأبقى شهراً آخر في بحر الغزال واذا باخرة تصفر فاسرعت الى شاطئ النهر لاراها فاذا هي باخرة اللفتنت فل فظننته قادماً من بحر الجبور لاخذ المؤونة كالمعتاد فلما رآني قال اسرع الى الباخرة وأت بامتعتك فقد علمت انك في انتظار باخرة البريد ولما لم ارها مرّت بي في طريقها الى المشرع جئت بباخرتي لاوصلك الى التوفيقية قبل سفر البريد منها. فنقلت امتعتي وودعت القباط والجنود وصعدت الى الباخرة وانا اكاد اطير فرحاً. وقبل مسيرنا بقليل رأينا البكباشي بلوني قادماً من واو فقلنا له ماذا جاء بك قال قد اجبرني البكباشي جيمس على السفر الى مصر. ثم صعد معنا الى الباخرة واقلعت بنا فكنا نسير ليلاً ونهاراً حتى وصلنا الى التوفيقية فاذا باخرة البريد قد اقلعت منها فواصلنا السير ولحقنا بها في قشودة وصعدنا اليها. ثم شكرنا اللفتنت فل وودعناه وعاد هو الى بحر الغزال وسرنا نحن شمالاً الى الخرطوم فوصلناها في اواسط شهر اكتوبر وكانت عيناي لا تفارق عبد الرحيم لانه صار في بلاد مأهولة ويخشى فراره فسلمته الى السجن وذهبت الى المستشفى. وبعد ايام سافرت الى مصر فوصلت اليها بعد قياسي من واو بستة واربعين يوماً

الدكتور امين المعلوف

مبادئ التواريخ

نريد بمبادئ التواريخ الازمنة التي تبتدئ منها التواريخ المختلفة كالخلق في التاريخ الاسكندري وميلاد المسيح في التاريخ المسيحي والهجرة في التاريخ الهجري. وغرضنا ذكر التواريخ المشهورة الآن او التي تقع للقارىء في ما يطالعه من الكتب المتداولة او يراه من الآثار القديمة ونسبتها بعضها الى بعض

(١) اقدم التواريخ التي ذكرها المؤرخون الافرنج تاريخ الاولمپياد نسبة الى الالعاب الرياضية التي كانت تقام في سهل اولمپيا ببلاد اليونان مرة كل اربع سنوات وتعطى فيها الجعالة للفائز وتسمى باسمه. واول دور من ادوار هذه الالعاب او اول دور أعطيت فيه الجعالة للفائز وقع في الانقلاب الصيفي سنة ٧٧٦ قبل التاريخ المسيحي او سنة ٢٣ قبل بناء رومية او في السنة ٣٩٣٨ من الدور اليولياني الذي حسبت بدايته سنة ٤٧١٤ قبل التاريخ المسيحي. وقد اتفق اكثر المؤرخين على جعل اول السنة الاولمپية في اول يوليو وعليه فالسنة الاشهر